المحاضرة السادسة: مصطلح العاطفة

تنتشر في الساحة النقدية الكثير من المفاهيم النقدية التي تتحكم في العملية الإبداعية، ولاشك أن العاطفة إحدى هذه المصطلحات التي أثارت الكثير من الجدل بين من يثبتها ويدعو إليها في العمل الأدبي، وبين من يدعو إلى إهمالها وتركها، وبناء على هذا الجدل نريد في هذه المحاضرة سبر مدى وجود هذا المصطلح فيما ورد من نصوص نقدية قديمة.

تعريفها

لغة: ورد في لسان العرب: تعطَّف عليه: وصله وبرّه، وتعطَّف على رحِمِهِ: رقّ لها. والعاطفة الرّحِم.[1].

اصطلاحا:

ورد في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: أن العاطفة هي: "الحالة الوجدانية التي تتميز بالاستقرار والدوام وبعدم العنف والثورة اللذين يميزانها عن الانفعال. ويترتب على وجود هذه الحال الميل إلى الشيء أو الانصراف عنه"[2].

وجاء في المعجم المفصل في الأدب لجبور عبد النور:

العاطفة: "حالة شعورية تندفع من النفس البشرية إثر انفعالها بحدث تراه أو تسمعه، أو بمشهد يؤثر فيه. وهي تقابل العقل ولا توافقه؛ فما يراه العقل غير ما تهواه العاطفة. والعاطفة مرتبطة بالشعور الإنساني ولا تنفصل عنه، مهما كان الإنسان عنيدا في إظهار مشاعره"[3].

والعاطفة في الأدب شديدة الارتباط؛ فالشاعر لا يصدر شعره ألا بدافع عاطفته، والأديب لا يكتب من عدم. ومجالات العاطفة في الأدب واسعة ومتنوعة، فهناك عاطفة وجدانية، وعاطفة قومية، وعاطفة وطنية، وعاطفة إنسانية إلخ...

حتى ولو كتب الكاتب أو نظم الشاعر من غير دواعي نفسية أو شعورية، فإنما يكتب بدواعي فنية أي عاطفة فنية.

فلا يمكن أن يستغنى عن العاطفة في الأدب لأنها أصل الإبداع الفني ومكمن البراعة والجودة.

---

[1]– ابن منظور: لسان العرب، مادة (عطف).

[2] – مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 242.

[3] – جبور عبد النور: المعجم المفصل في الأدب، ص 612–613.

والنص الأدبي شعرا أو نثرا بلا عاطفة، نص جاف ميتلا يلامس مشاعر القراء أو المستمعين، ولكل شيء حد، فإن المبالغة في العاطفة يخرج الشاعر عن الطبع إلى التصنع الممقوت.

مصطلح العاطفة في النقد القديم

مفهوم العاطفة في الأدب من المفاهيم الحديثة حيث"إننا لا نجد في النقد العربي القديم إشارة واضحة إلى مفهو العاطفة ولكننا نجدهم يستعملون ما يدل على أحوال النفس الإنسانية وما يناسب هذه الأحوال من موضوعات شعرية"[1].

ويمكن القول إن العاطفة أحد اشكال التطور للخطاب النقدي القديم عبّر عنه القدماء بعبارات مختلفة لا تخرج عن معناه، منها: عبارة (قواعد الشعر) جاء في كتاب العمدة لابن رشيق: في باب قواعد الشعر "وقالوا قواعد الشعر أربع: الرغبة والرهبة والطرب والغضب: فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع"[2].

وقد عقب أحمد أمين على مقولة ابن رشيق بأن صاحبها:"إنما راعى عواطف الشاعر والأديب لا عواطف السامعين وهو الذي نقصده"[3].

وجاء في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة : "قال عبد الملك بن مروان لأرطأة بن سُهية: أتقول الشعر اليوم؟ فقال: والله ما أطرب ولا أغضب ولا أشرب ولا أرغب وإنما يجيء الشعر عن إحداهن"[4].

وقيل للشنفرى حين أُسِرَ: أَنْشِدْ، فقال: الإنشاد على حين المسرّة"[5].

إذن فقد جعل الشاعر هذه العواطف الأربع الينابيع التي يتفجر منها الشعر، وهي دواعي الشعر التي قال ابن قتيبة فيها: "وللشعر دواع تحث البطيء، وتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب"[1].

---

[1]– نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب الأدبي، ج2، دار هومة، منشورات دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،(د،ط)، الجزائر، (د،ت)، ص 56.

[2]– ابن رشيق: العمدة، ج1، ص120.

[3]– أحمد أمين، النقد الأدبي، ج1، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط3، 1963ص 29.

[4]– ابن قتيبة : الشعر والشعراء، ج1، ، ص 80، وينظر: العمدة، ج1، 120.

[5]– نفسه، ص80.

وكان الشعر يستعصي على من لم تهج عاطفته في ناحية من نواحيها، قال ابن قتيبة: "وللشعر تارات (أوقات) يبعد فيها قريبه ويستصعِبُ فيها ريِّضه"[2].

وهذا الفرزدق – وهو شاعر كبير– كان يقول: "أنا أشعر تميم عند تميم وربما أتت علي ساعة ونزع ضِرس علي أهون من قول بيت"[3].

ولابن قتيبة رأي في أوقات الشاعرية لدى الشعراء:

"وللشعر أوقات يُسرع فيها أتيه، ويسمح فيها أبيه. منها أول الليل قبل تغشّي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغذاء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبيس والمسير".[4]

وقد ربط النقاد القدامى بين هذه النوازع والأغراض الشعرية فقال دعبل الخزاعي: "من أراد المديح فبالرغبة، ومن أراد الهجاء فبالبغضاء، ومن أراد التشبيب فبالتشوق والعشق، ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء"[5].

مقاييس العاطفة

بدأ هذا ظهور هذا المفهوم مع النقاد الأوائل في العصر الحديث، حيث تردد في أغلب الكتب النقدية مع أحمد الشايب في متابه (أصول النقد الأدبي) ومحمد النويهي في كتابه (الشعر الجاهلي منهج دراسته وتقويمه) ومصطفي ناصف في كتابه (دراسة الأدب العربي).

حيث أضفى هؤلاء النقاد على مفهوم العاطفة في العصر الحديث الكثير من الصفات لتمييزها وتحديد نوعها، من تلك الأوصاف: القوة والشدة والضعف والخفوت، والثورة والهدوء وغيرها من الصفات، يقول محمد النوهي:"وفي الشعر الجيد نجد تلاؤما بين هذه الصفات الحرفية وبين نصيب العاطفة من الحدة والعمق، والتوتر والإرخاء، والاندفاع والضبط، إلى غير ذلك من صفات العاطفة، ونجد انسجاما بين نوع العاطفة وطعمها أو ما تتوهم لها من طعم، من حلاوة ومرارة، من فرحة منطلقة أو حسرة مكبوتة، أو غضبة هائجة، أو صراخ ممزق..."[6].

---

[1]– نفسه، ج1، ص 78

[2]– المصدر نفسه، ج1، ص 80.

[3]– ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص81.

[4]– نفسه، ص 81.

[5]– البديع في نقد الشعر. نقلا عن محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي، ص291.

[6]– محمد النويهي، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، منشورات الدار القومية للطاعة والنشر والتوزيع، (د،ط)، القاهرة، مصر، (د، ت)، ج1، ص43.

كما وصفها هذا الكاتب بأوصاف عدة منها: التموج والتطريب، والعاطفة الحزينة الشاكية والعاطفة العنيفة...

وعند أحمد الشايب فإن مقاييس العاطفة خمسة هي: "صدق العاطفة أوصحتها؛ قوة العاطفة أو روعتها؛ ثبات العاطفة أو استمرارها؛ تنوع العاطفة أو شمولها، سمو العاطفة أو درجتها"[1]. وفي الحقيقة أننا لا ندري بأي مقياس يقاس صدق العاطفة وكذبها، وقوتها أوضعفها..

العواطف الأدبية

العواطف الأدبية أكثر من أن تحصى لكثرتها وتداخلها وتعقدها، يحددها أحمد الشايب في محورين:

الأول: العواطف الشخصية التي تحمل الشعراء على الدأب وراء مصالحهم الشخصية كالجشع والفرار من الميدان أو الانتقام أو المدح رجاء النوال، فهذه ليستمن الانفعالات الأدبية السامية التي يحرص عليها النقد،لأنها تحيا في دائرة ضيقة هي دائرة المنتفع ثم تحمل النفس على الأثرة والهوان، فالمدح على جميل خاص أو على إحسان نلته لايكون كالمدح الذي يتجه إلى الإحسان في ذاته أو إلى المحسن باعتباره فاضلا إنسانيا دون العناية بالنفس ظفرت بشيء أولا. وكذلك الثناء على الأمانة والبطولة الوطنية مطلقا يجد من جميع النفوس إصغاء لأنه متصل بفضيلة عامة يشترك فيها الناس جميعا، فالمد يكون خاصا وعاما والثان أولى بالفن الأدبي، مثاله أن زهير ابن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان لالعطاء يظفر به، ولكن لنهوضه بالمصالحة بين عبس وذبيان:

يَمِيناً لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيْلٍ وَمُبْرَمِ
تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعاً بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ القَوْلِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعِيدَيْنِ فِيْهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ
عَظِيمَيْنِ فِي عُلْيَا مَعَدٍّ هُدِيْتُمَا وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزاً مِنَ المَجْدِ يَعْظُمِ

بينما يمدح النابغة الذبياني أمراء الحيرة وغسان حبا في المال والعطاء، ويطوف الأعشى في الآفاق وراء المال[2].

[1]– ينظر: أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط 10، 2004، ص190.

[2] – المرجع نفسه، ص181.

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كـل مَلْكٍ دونـها يتدبدب
فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

الثاني: العواطف الأليمة، وهي التي تثير آلام القراء وتشعرهم بما ينغص حياتهم ويكدر صفوها كالحسد والسخط واليأس والظلم ونحوها، لأن وظيفة الأدب الرفيع يغلب عليها التهذيب النفسي، وإذاعة السرور لا البؤس والتبرم؛ ولعل ذلك من وظيفة الفنون الجميلة كلها. على أن الأديب والإنسان مطلقا لايحب إشعار نفسه بالآلام إلا أن يكون سقيم النفس كئيب الطبع يرى يرى الحياة شرورا وآثاما. من ذلك قول أبي العلاء الذي يبعث السخط والتشاؤم والبرم بالحياة[1]:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحُقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحكمنا الأيـــــــام حتى كأننا زجــاج ولكن لا يعاد له سبك

ومن العواطف السامية في الشعر الإيثار وحب الخير للغير، وفي نقض ذلك نجد الأثرة وحب الذات، فمن النوع الأول قول المعري:

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ومن النوع الثاني قول لأبي فراس الحمداني:

معللتي بالوصل والموت دونه إذا متضمآنا فلا نزل القطر

[1]– أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ص183.